



أحد كبار السن ممن تعلق قلبه بالمسجد، اعتاد أن يسألني بعد صلاة الفجر من كل يوم عن آخر الأخبار في سوريا، واليوم بعد أن ذكرت له طرفاً من الأخبار السيئة وأعداد الشهداء المتزايدة، والمجزرة التي ارتکبت بحق الأطفال والنساء صعقني بقوله: هل يقف رب العالمين بصف طواغيت سوريا؟

أدركت عمق اليأس والإحباط الذي بدأ يتسلل إلى النفوس حتى نفوس أولئك الذين كنت أحسب أن عندهم من الإيمان ما يعصمهم من سوء الظن بالله، وقلت في نفسي: إذا كان هذا حال من يتبع الأخبار وهو يعيش خارج سوريا في أمن وأمان ورغد من العيش، فكيف حال من يواجه آلة الموت داخلها صباح مساء، ولا يرى إلا الخذلان والتواطؤ عليه وعلى ثورته؟ لذا رأيت من الأهمية بمكان أن تتضامن الجهود وتحشد الطاقات لرفع الروح المعنوية للمسلمين عموماً للثائرين في سوريا خصوصاً، وأن واجب الوقت بث روح التفاؤل والأمل في النفوس والتشجيع بمعاني النصر وروحه، وباحتمالية زوال الظلم والطغيان، وإسهاماً مني في تحقيق هذا الأمر أحبيت أن أذكر بالحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: أن الثائرين والمتظاهرين ضد نظام الظلم والإجرام في سوريا أصحاب حق وطلاب عدالة، وأنهم بثورتهم هذه يعملون على إحياء نفوس شعب بأكمله واسترداد وطن مخطوف طال انتظار أهله لعودته، وأنه لم يحصل أن يجتمع على تأييد ثورة من الثورات، ما اجتمع للثورة السورية، حيث توافر أمل الأرض عربهم وعجمهم، مسلمهم وكافرهم – إلا من مسخت فطرته البشرية، وتصحر قلبه من كل معانٍ للخير والرحمة –، واجتمعوا على تأييد الثورة السورية، ومطالباتها المحققة في نيل الحرية والعدالة، ورفض الظلم والبطش والإجرام الذي تقوم به الطغمة الحاكمة في سوريا، وفرضت البطولات والثبات الذي أبداه الثائرون في مواجهة شتى صنوف القمع نفسه على المشهد العالمي، وباتت أخبار سوريا تحتل صدارة نشرات الأخبار في مختلف القنوات والإذاعات العالمية، وقد حظيت مشروعية الثورة السورية بإجماع علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وموافقهم السابقة من ثورات مماثلة، ورفض الجميع المنطق القائل: إن ما يجري في سوريا فتنٌ ينبغي اعتزالها، لأن الفتنة تكون حيث يختلط الخير والشر والحق بالباطل، أما هنا فالحق أبلج مثل رابعة النهار والباطل ظاهر مكشوف لا يخفى إلا على عميان البصيرة.

الحقيقة الثانية: أن الثوار السوريين اليوم يقفون في خط الدفاع الأول عن الأمة الإسلامية جماعة، وأنهم يقاتلون بالنيابة عن كل مسلم، وأن انتصار ثورتهم يعني اندحار كل مشاريع المكر والخيانة على اختلاف صورها وتعدد أشكالها من صهيونية وصليبية وصفوية، وأن زوال النظام الطاغي في سوريا يعني زوال الكابوس الإيراني عن المنطقة كلها، والمقدمة الحقيقة لزوال دولة اليهود – بإذن الله –، والمهد لتبوء أرض الشام مكانتها الموعودة في الكتب السماوية. ولست مبالغأً إذا قلت:

إن انتصار الثورة في سوريا على نظامها القمعي المؤيد من القوى العالمية سيكون منارة تضيء الطريق أمام كل المقهورين والمظلومين في العالم، ومعلماً يستلهمون منه دروس الكرامة العزة والتحرر.

الحقيقة الثالثة: أنه وإن كان الأصل أن لا يتنى المؤمن لقاء العدو وأن يسأل الله العافية، إلا أنه حيث تفرض عليه المواجهة، فالواجب أن يحول المحنـة إلى منحة والنـقمة إلى نـعمة، فـيعلم أن الله قد أكرمه وفتح له بـابـ الجـهـادـ الذي هو نـزـوةـ سنـامـ الإسلامـ، وأـجـرـ الجـهـادـ لا يـعـدـلـ أـجـرـ أيـ عملـ آخرـ، فـيـ الصـحـيـحـينـ: قـيـلـ: "يا رـسـوـلـ اللهـ، ما يـعـدـلـ الجـهـادـ فيـ سـبـيلـ اللهـ؟" قالـ: ((لا تستطـيعـونـهـ))، فأـعـادـواـ عـلـيـهـ مـرـتـيـنـ أوـ ثـلـاثـاـ، كـلـ ذـلـكـ يـقـولـ: ((لا تستطـيعـونـهـ))، ثمـ قالـ: ((مـثـلـ المـجـاهـدـ فيـ سـبـيلـ اللهـ كـمـثـلـ الصـائـمـ الـقـائـمـ الـقـانـتـ بـآـيـاتـ اللهـ لـا يـفـتـرـ مـنـ صـلـاـةـ وـلـاـ صـيـامـ حـتـىـ يـرـجـعـ المـجـاهـدـ فيـ سـبـيلـ اللهـ)). وـقـالـ - عـلـيـهـ الصـلاـةـ وـالـسـلـامـ - : ((مـوقـفـ سـاعـةـ فيـ سـبـيلـ اللهـ، خـيـرـ مـنـ قـيـامـ لـيـلـةـ الـقـدـرـ، عـنـ الـحـجـرـ الـأـسـوـدـ))، وـمـعـلـومـ أـنـ الصـلاـةـ فيـ الـمـسـجـدـ الـحرـامـ، بـمـائـةـ أـلـفـ صـلـاـةـ، وـهـذـهـ الـمـضـاعـفـةـ الـعـظـيمـةـ، مـضـاعـفـةـ أـيـضاـ بـأـكـثـرـ مـنـ 83ـ عـامـاـ فيـ لـيـلـةـ الـقـدـرـ، وـبـهـذـاـ تـكـوـنـ سـاعـةـ الـربـاطـ خـيـرـاـ مـنـ كـلـ هـذـاـ عـلـمـ الـعـظـيمـ، فـسـبـانـ اللهـ! وـلـأـجـلـ هـذـاـ الـفـضـلـ كـانـ - عـلـيـهـ الصـلاـةـ وـالـسـلـامـ - يـتـمـنـ أـنـ لـاـ تـفـوتـهـ الـمـشـارـكـةـ فـيـ أـيـ وـاقـعـةـ مـعـ الـأـعـدـاءـ، لـذـكـ قـالـ: ((لـوـلـ أـشـقـ عـلـىـ أـمـتـيـ مـاـ قـعـدـتـ خـلـفـ سـرـيـةـ))).

وـمـعـلـومـ أـنـ الجـهـادـ لـاـ يـتـوقفـ عـلـىـ الـمـواجهـةـ الـعـسـكـرـيـةـ فـيـ الـمـيدـانـ، بلـ يـتـسـعـ لـيـشـمـلـ كـلـ الـأـعـمـالـ الـتـيـ تـسـاـهـمـ فـيـ زـوـالـ الـظـلـمـ وـنـصـرـ الـحـقـ وـالـعـدـلـ، فـالـتـصـدـيـ لـلـمـعـتـدـيـنـ عـلـىـ الـنـفـوـسـ وـالـحـرـمـاتـ فـيـ جـهـادـ، وـالـسـيـرـ فـيـ الـمـظـاهـرـاتـ، وـكـتـابـةـ الـشـعـارـاتـ وـالـلـيـافـطـاتـ وـالـأـشـعـارـ وـالـمـقـالـاتـ وـإـيـوـاءـ الـمـشـرـدـيـنـ وـإـسـعـافـ الـجـرـحـيـ، وـالـتـصـوـيرـ وـالـتـوـثـيقـ لـلـأـنـتـهـاـكـاتـ، وـجـمـعـ الـتـبـرـعـاتـ وـتـعـرـيـةـ الـنـظـامـ فـيـ وـسـائـلـ الـإـعـلـامـ وـفـضـحـهـ عـلـىـ الـفـضـائـيـاتـ، وـكـلـ مـاـ تـحـتـاجـ إـلـيـهـ الـثـورـةـ مـنـ مـتـطلـبـاتـ دـاـخـلـ فـيـ مـسـمـيـ الـجـهـادـ إـنـ خـلـصـتـ الـيـةـ لـلـهـ - سـبـانـهـ - .

الحقيقة الرابعة: الإيمان بأن النصر على نظام متجرد في طغيانه وإجرامه، ومتسبّب بحدٍ طائفيٍّ عنصريٍّ، ومضى على اغتصابه للسلطة ما يقرب من نصف قرن لا يمكن أن يتحقق بتلك السهولة التي يظنها البعض، بل لا بدّ من دفعٍ ومدافعةٍ وصبرٍ ومصايرةٍ وتضحياتٍ وأثمانٍ باهظةٍ تدفعها الأمة من دماء أبنائها وبناتها، ومن أمنها وأمانها ومن أموالها وتجارتها ومصالحها، وهذه سنة الله في النصر والانعتاق من الطغاة الظالمين، قال - تعالى - : {أَمْ حَسِبُتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَّثُلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّىٰ يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}، إذن ابتلاء الله للصالحين بتأخر النصر وشتى أنواع الشدائيد سنة قديمة ثابتة، ولذلك حين اشتكي المستضعفون من المسلمين في مكة للرسول - صلى الله عليه وسلم - وقالوا له: "ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعوا الله لنا؟"؛ كان جوابه لهم: ((إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه)). ثم قال: ((والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمـهـ، ولكنكم قوم تستعجلون)).

فما دام التأثرون يستمدون شرعية ثورتهم من الدين ويقومون بما يفرضه عليهم الشرع، فهم على خيرٍ وهم في كفالة الله، كما قال - صلى الله عليه وسلم - : ((تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته؛ أن يدخله الجنة أو يرده إلى مسكنه بما نال من أجر أو غنيمة)), وليس لنا بعد ذلك أن نقترح على الله خلاف ما تقتضيه حكمته من تقديم النصر أو تأخيره.

الحقيقة الخامسة: أنه وإن كانت قلوبنا تتقطع ألمًا وحزناً على الأعداد المتزايدة من الشهداء الذين يقطون يومياً على منبر الحرية، إلا أننا لسنا ننسى أن الشهادة في سبيل الله شرف عظيم لصاحبيها، واصطفاء يصطفى الله لها من يشاء من عباده، وإذا كنا موقنين أننا لن نموت إلا مرة واحدة مكتوبة علينا قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فلماذا لا نسعى لأن تكون شهادة لنا في سبيل الله؟ ولا أدل على علو هذه الأمانة وعظيم مكانتها من كون الرسول - صلى الله عليه وسلم -

على الرغم من منزلته الرفيعة عند الله يتمناها ويشتتها، وليس مرة واحدة بل مرة تلو مرة، قال - صلى الله عليه وسلم - : ((والذي نفس محمد بيده لوردت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل)) ولم يا ترى؟ يجيب - صلى الله عليه وسلم - : ((ما أحد يدخل الجنة، يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مرات، لما يرى من الكراهة)), وما يؤكد هذا المعنى أنه لما قتل عبد الله بن عمرو بن حرام - رضي الله عنه - يوم أحد قال - عليه الصلاة والسلام - لولده جابر: ((يا جابر! أتدرى ماذا فعل الله بأبيك))؟ قال: "لا". يا رسول الله. قال: ((والذي نفسي بيده! لقد كلام الله أباك كفاحاً بلا ترجمان، فقل: تمن يا عبدي. قال: أتمنى أن تعيني إلى الدنيا فقتل فيك ثانية. قال: إني كتبت على نفسي أنهم إليها لا يرجعون؛ فتمن. قال: أتمنى أن ترضى عنِّي؛ فإني قد رضيت عنك. قال: فإني قد أحللت عليك رضوانِي لا أُسخط عليك أبداً)). فأيُّ فضلٍ في الإسلام أعظم من هذا الفضل، وأيُّ مكانة أسمى من هذه المكانة؟!

وإذا كان البعض يحجم عن ساح النزال لما يتوهمه من الآلام والأوجاع؛ فليستمع إلى قوله - صلى الله عليه وسلم - : ((ما يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنَ القَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِ الْقَرْصَةِ))! وإذا كان البعض يخاف الجراح فليستمع إلى قوله - عليه الصلاة والسلام - : ((والذي نفسي بيده لا يُكلم - من الكلم وهو الجرح - أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يُكلم في سبيله إلا جاء يوم القيمة اللون لون الدم، والريح ريح المسك)).

وإذا كان البعض يخاف من السجن والأذى في سبيل الله: ((مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍ، وَلَا حَزَنٍ وَلَا غَمٍ، وَلَا أَذَى، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ - تعالى - بِهَا خَطَايَاهُ)).

إذن، وإن كان الإنسان يؤثر السلامة والعافية ويحب أن يرى ثمرة عمله في الدنيا، وهذا أمر مشروع، إلا أنه لا يجوز أبداً أن ننسى البعد الأخرى للقضية، وهو الأهم، قال - تعالى - : {يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل}.

الحقيقة السادسة: لا بد من اليقين الجازم أن هذا النظام زائل طال الزمان أم قصر، وهذه سنة الله في الظالمين قديماً وحديثاً لم تتبدل ولم تتغير، وسقوط هذا النظام سيكون أسرع من غيره من أنظمة الظلم والاستبداد، وذلك لأنَّه تمادي في الطغيان، وأوغل في الإجرام، والنبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((ما من ذنب أجرد أن يعدل الله - تعالى - لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخل له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم))).

ختاماً: العاقبة للثوار إن هم صبروا واعتمدوا على الله وحده، وأخذوا بما أمكنهم من أسباب، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

المصدر: موقع المسلم

المصادر: